

تفسير البحر المحيط

@ 465 @ التفضيل ، فأما الآخر فحق أدائه ، نقله الزمخشري ، وفيه دسياسة الاعتزال . {
قُلْ ° * أَتُذَكِّرُونَ ° * لَتَذَكَّرُنَّ } : استفهام توبيخ وتشنيع عليهم ، يكفر من أوجد
العالم سفليه وعلويه ، ووصف صورة خلق ذلك ومدته ، والحكمة في الخلق في مدة هو قادر على
أن يوجد ذلك دفعة واحدة . فذكر تعالى إيجاد ذلك مرتباً ، وتقدم الكلام في الخلق في مدة
هو قادر على أن يوجد ذلك دفعة واحدة . فذكر تعالى إيجاد ذلك مرتب ، وتقدم الكلام في أول
ما ابتدء فيه الخلق ، وما خلق مرتباً . ومعنى { فَرَى يَوْمَ مَآثِنَ } : في مقدار يومين .
{ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَاداً } : أي أشباهاً وأمثالاً من الملائكة والجن والأصنام
يعبدونها دونه . وقال السدي : أكفاء من الرجال يطيعونهم ، وتجعلون معطوف على لتكفرون ،
فهو داخل في حيز الاستفهام المقتضي الإنكار والتوبيخ ، { ذَالِكَ } أي موجد الأرض ومخترعها
، { رَبِّ الْعَالَمِينَ } من الأنداد التي جعلتم له وغيرهم . .
{ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي } : إخبار مستأنف ، وليس من الصلة في شيء ، بل هو معطوف
على قوله : { لَتَذَكَّرُنَّ } . { وَبَارَكَ فِيهَا } : أكثر فيها خيرها . { وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَاطَهَا } : أي أرزاق ساكنيها ومعايشهم ، وأضافهما إلى الأرض من حيث هي فيها
وعنها برزت ، قاله السدي . وقال قتادة : أقواتها من الجبال والأنهار والأشجار والصخور
والمعادن ، والأشياء التي بها قوام الأرض ومسالحتها . وقال مجاهد : أقواتها من المطر
والمياه . وقال عكرمة والضحاك ومجاهد أيضاً : خصائصها التي قسمها في البلاد مما خص به
كل إقليم ، فيحتاج بعضها إلى بعض في التفوُّت من الملابس والمطاعم والنبات . { فَرَى
أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ } : أي في تمام أربعة أيام باليومين المتقدمين . وقال الزمخشري {
فَرَى أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ } ، فذلكا لمدة خلق الأرض وما فيها ، كأنه قال : كل ذلك في أربعة
أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان . وقال الزجاج : في تتمة أربعة أيام ، يريد
بالتتمة اليومين . انتهى ، وهذا كما تقول : بنيت جدار بيتي في يوم ، وأكملت جميعه في
يومين ، أي بالأول . .
وقال أبو عبد الله الرازي : ويفقه من كلام الزمخشري في أربعة أيام فائدة زائدة على قوله
في يومين ، لأن قوله في يومين لا يقتضي الاستغراق لذلك العمل . أما لما ذكر خلق الأرض وخلق
هذه الأشياء ، ثم قال في أربعة أيام سواء ، دل على أن هذه الأيام مستغرقة في تلك الأعمال
من غير زيادة ونقصان . انتهى . ولا فرق بين يومين وأربعة أيام بالنسبة إلى الاستغراق ،
فإن كانت أربعة تقتضي الاستغراق ، وكذلك اليومين يقتضيان ، ومتى كان الطرف معدوداً ،

كان العمل في جميعه ، إما على سبيل التعميم ، نحو : سرت يومين ، وقد يكون في بعض كل يوم منها ، نحو : تهجدت ليلتين ، فاحتمل الاستغراق ، واحتمل في بعض كل واحد من الليلتين ؛ وإذا كان كذلك ، احتمل أن يكون وقع الخلق للأرض في بعض كل واحد من اليومين ، واحتمل أن يكون اليومين مستغرقين لخلقها ، فكذا في أربعة أيام يحتمل الاستغراق ، وأن يكون خلق الأرض والجبال والبركة وتقدير الأقوات وقع في بعض كل يوم من الأربعة ، فما قاله أبو عبد الله الرازي لم تظهر به فائدة زائدة . .

وقرأ الجمهور : سواء بالنصب على الحال ؛ وأبو جعفر بالرفع : أي هو سواء ، وزيد بن عليّ والحسن وابن أبي إسحاق وعمرو بن عبيد وعيسى ويعقوب : بالخفض نعتاً لأربعة أيام . قال قتادة والسدي : معناه سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأراد العبرة منه ، فإنه يجده كما قال تعالى . وقال ابن زيد وجماعة : معناه متسو مهياً . أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر ، فعبر بالسائلين عن الطالبين لأنهم من شأنهم ولا بد طلب ما ينتفعون به ، إذ هم بحال حاجة . وقال الزمخشري : فإن قلت : بم تعلق قوله : { لِّلْمَسَّائِلِينَ } ؟ قلت : بمحذوف ، كأنه قيل هذا الحصر لأجل من سأل في كم خلقت الأرض وما فيها ، أو يقدر ، أو قدر فيها أقواتها لأجل الطالبين لها المحتاجين المقتاتين . انتهى ، وهو راجع لقول المفسرين المتقدمين . .

ولما شرح تخليق الأرض وما فيها ، أتبعه بتخليق السماء فقال : { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ } : أي قصد إليها وتوجه دون إرادة تأثير في غيرها ، والمعنى : إلى خلق السماء . والظاهر أن المادة التي خلقت منها السماء كانت دخاناً . وفي أول الكتاب الذي يزعم اليهود أنه التوراة إن عرشه تعالى كان على الماء قبل خلق السموات والأرض ، فأحدث الله في ذلك سخونة ، فارتفع زبد ودخان ، أما الزبد فبقي على وجه الماء ، فخلق الله منه اليابوسة وأحدث منه الأرض ؛ وأما الدخان فارتفع وعاد فخلق الله منه السموات . وفيه أيضاً أنه خلق السماء من أجزاء مظلمة . انتهى . وروي أنها كانت جسماً رخواً كالدخان أو البخار . قال ابن عطية : هنا لفظ